﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ اختلافِ النّاس في الاعتقاد يوجبُ بيانَ علاقة المؤمن بأقربائه المشركين

ذَكَرَ الرّازي أنَّ وجهَ تعلُّقِ الآية بما قبلها هو: "لمّا بيَّن اللّه حُسْنَ التَّكاليف ووقوعها، وبيَّن ثواب من حقَّق التَّكاليف أصولها وفروعها تحريضًا للمكلف على الطّاعة؛ ذكر المانع، ومنعه من أن يختار اتِّباعه، فقال: الإنسانُ إنِ انقاد لأحد؛ ينبغي أن ينقادَ لأبويه، ومع هذا لو أمراه بالمعصية؛ لا يجوز اتِّباعهما فضلًا عن غيرهما، فلا يمنعنَّ أحدكم شيءٌ من طاعة اللّه، ولا يتبعنَّ أحدٌ من يأمر بمعصية اللّه"[1]، أي: لمّا بيَّن النَّظم الجليل أحوالَ النّاس من حيثُ الإيمان، وكان من دأب القرآن أن يبيِّن ما يجب على المؤمنين تجاه المخالفين لهم، وكان ممّا يجبُ على المؤمنين مناوأة الكافرين ومغاضبتهم، أتبع النَّظم ذلك في هذه الآية ما يجب على المسلم في معاملة الأقرباء وذوي الرَّحم من المشركين، فخصَّ منهم الوالدين؛ لأنَّهما أولى النّاس بالإحسان[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَوَصَّيْنَا﴾: (وصى) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى وصْلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، والوَصيَّةُ مِنْ هَذا القياسِ، كَأَنَّهُ كَلامٌ يوصَى، أيْ: يوصَلُ[3]، والوَصيَّةُ: التَّقدُّمُ إلى الآخر بما يعمل به مقترنًا بوعظ، من قولهم:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 212.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصى).

أرضٌ واصيَةٌ: متَّصلة النَّبات، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: 132][1]، وأوصيتُهُ بولده، أي: استعطفتُهُ عليه، وهذا المعنى: لا يقتضي الإيجاب، وأوصيته بالصَّلاة أمرتُهُ بها، وعليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153]، وقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: 11]، أي: يأمركم[2].

2) ﴿حُسۡنٗاۖ﴾: (حسن) أَصْلٌ واحِدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ[3]، والحَسَنَةُ: ضدُّ السَّيِّئَةِ، والإحْسانُ: ضدُّ الإساءَةِ، والحَسَنُ: ما حَسُنَ من كلِّ شيءٍ[4]، والحُسْنُ: عبارةٌ عن كلِّ مُبهِجٍ مرغوبٍ فيه، وأكثرُ ما جاءَ في القُرْآن في المُسْتَحْسَن مِن جهَةِ البَصيرَةِ[5]، والمقصود بالحَسنِ في الآيةِ: ما يَحْسُنُ من الفعل.

3) ﴿جَٰهَدَاكَ﴾: (جهد) أَصْلُهُ المَشَقَّةُ والجُهْدُ الطّاقَةُ[6]، جَهَدَ دابَّتَهُ، وأجْهَدَها؛ إذا حَمَلَ عَلَيها في السَّيرِ فوقَ طاقَتِها، وجَهَدَ الرَّجُلُ في كَذا، أي: جَدَّ فيهِ، وبالَغَ، وجَهَدتُ اللَّبَنَ، فهوَ مَجْهودٌ، أيْ: أخْرَجْتُ زُبْدَهُ كُلَّهُ، وجَهَدْتُ الطَّعامَ: اشْتَهَيْتُهُ، والاجتِهادُ والتَّجاهُدُ: بَذْلُ الوُسْعِ والمجهود[7]، والمعنى الجامع لكلِّ ذلك يدلُّ على إفْراغِ قوَّةِ الشَّيْءِ[8]، والجُهْدُ: الوُسْعُ والطَّاقَةُ، وهو بلوغك غايةَ الأمرِ الَّذي لا تألو عن الجهد فيه، تقول: جهدْتُ جهدي، واجتهدت رأيي ونفسي، حتَّى بلغتُ مجهودي، واجهد جهدَك في هذا الأمر، أي: ابلُغْ فيه غايتك[9]، والمراد في الآية: إفراغُ الوسع وبذل غاية الجهد.

4) ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾: (نبأ) أصله الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان، يُقالُ للَّذي يَنبَأ من أرض إلى أرض: نابِئٌ، وسَيلٌ نابِئٌ: أتى من بلدٍ إلى بلد، ومن هذا القياس النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّه يأتي من مكان إلى مكان، والمُنبِئُ المُخبِرُ، وأنبَأته، ونَبَّأته[10]، والنَّبأ: خبر ذو فائدة عظيمةٍ

(1) الرّاغب، المفردات: (وصى).
(2) الفيّومي، المصباح المنير: (وصى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (حسن).
(5) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (جهد).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جهد).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهد).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).

يحصل به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأٌ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثَّلاثة[1]، والمراد به في الآية الكريمة: أخبركم بما كنتم تعملون.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

طاعةُ الله تعالى يجب أن تُقدَّم على كلِّ طاعة مع حفظ البرِّ لمستحقّيه

يُخبر النَّظمُ الجليلُ أنَّ الله تعالى بعظمته وجلاله قد أمر كلَّ إنسان، موصيًا إيّاه بأن يُحسن لوالديه غايةَ الإحسان، بأن يبرَّهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقَّهما، ويُسيء إليهما في قوله وعمله، ومع أنَّ البرَّ إليهما واجبٌ، فإنَّه لا ينبغي متابعتهما في حالة شركهما، فإنْ طلبا منك - أيُّها الإنسان - وألزماك أنْ تُشرك بالله الواحد تعالى إلهًا ليس لك به علمٌ بكونه إلهًا؛ فلا توافقهما في الإشراك، فإنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وذلك لأنَّ مرجعكم جميعًا - أيُّها النّاس - يوم القيامة كائنٌ إليَّ لا إلى أحد آخر، فأحاسبكم على أعمالكم، وأجازي الذين أساؤوا بما عملوا، وأجازي الذين أحسنوا بالحسنى[2].

وقد روى مسلم والواحدي أنَّ هذه الآيةَ نزلت في سعد بن أبي وقاص، وذلك أنَّه لمّا أسلم جاهدته أمُّهُ؛ لأنْ يعود إلى الشِّرك، جاء في صحيح مسلم: «حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ لا تُكَلِّمُهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، ولا تَأْكُلُ، ولا تَشْرَبُ، ومَكَثَتْ ثَلاثَةَ أيّام حَتَّى غُشِيَ عَلَيْها مِنَ الجَهْدِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾»[3]، وكما لا يخفى أنَّ العِبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، فالحكمُ بوجوب الإحسان إلى الوالدين عامٌّ لكلِّ إنسان.

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 627، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 347، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 16.

(3) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1748)، وينظر: الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 341.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف بالواو في ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

مـــع بُـغـض الـشّـرك فـإنّ المـــؤمـــن لا ينفكُّ عـن الـبرّ بالوالدين

عطف النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 3]، فلمّا ذكر أنَّ الفتنة واقعةٌ - لا محالة - وكان الشِّرك أكبرَ المنكرات، وهو مناقض التَّوحيد، وكان المسلمون ينفرون منه ومن أهله أشدَّ النُّفور، أفاد العطف أنَّ الفتنةَ بالوالدين المشركَين هي من أشدِّ الفتنةِ، بخاصَّة إذا كانوا يدعون إلى شركهم، فأشار إلى ضرورة البرِّ بهم برغم شركهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل التَّوصية دون الأمر:

الـــوصـــيَّـــةُ بالإحسان تـدلُّ على فشوِّ الخير، وتأكيد الأمر

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالتَّوصية دون الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ ولم يقل: (وأمرنا الإنسان بوالديه حسنًا)؛ لأنَّ التَّوصية تتضمَّن الخير والنَّفع لطرفي التَّوصية؛ الوالدين، والأبناء، فالفعل (وصّى) "يجري مجرى أمَرَ معنًى وتصرُّفًا غيرَ أنَّه يُستعمل فيما كان في المأمورِ به نفعٌ عائدٌ إلى المأمورِ أو غيرِه"[2]، كما أنَّ لفظ التَّوصية يشعر بتأكيد الأمر بالإحسان.

توجيهُ إسناد الفعل (وصَّى) إلى ضمير العظمة:

وصيَّة الله تعالى في الـوالـديـن، عـظيـمة الـقـدر جليلة الشَّأن

أسندَ النَّظمُ الجليل الفعل إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه فعل ذلك بما له من العظمة[3]، والمرادُ من ذلك بيانُ عظمة الوصيَّة، فهي صادرة من الإله العظيم، فيجب أن تُؤْخَذَ على أعلى محامل الجدِّ والإنفاذ.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

عرَّف النَّظم الجليل لفظَ الإنسان بالألف واللّام في قوله جلَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 395.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 31.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 14/ 395.

المأمورُ بالإحسان للوالدين جنس الإنسان

شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، وهي هنا لام الجنس التي تفيد الاستغراق[1]، فيكون شاملًا لكلِّ إنسان؛ فإنَّه يُطلق على الذَّكر والأنثى، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: 1 - 2]، ومعلوم: أنَّ اللهَ لم يقصد الذكور خاصة[2]، كما أنَّه لم يقصد المؤمنين خاصَّة كذلك، فتكون هذه الوصيَّة جارية مجرى الحكم العام للإنسانيَّة جميعًا.

معنى (الباء) في القيد: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾:

الواجبُ إيصال الخير ملتصقًا بالوالدين

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، وهي هنا دالَّة على الإلصاق والمصاحبة[3]، فالمعنى: أنَّ الوصيَّة بالإحسان تقتضي إلصاق هذا الإحسان بهما، وهذا يدلُّ على تأكيد إيصاله لهم بتأكيد فعلهِ وإظهار الخير والإحسانِ لهم حتّى يرونه ظاهرًا مصاحبًا لهم.

نكتةُ تغليبِ الولادة دون الأبوَّة والإضافة فيها:

عـلَّـةُ التَّـوصـيـة بالوالدين مبنيَّةٌ عـلـى الـتَّـذكـيـر بسبب الإيجاد

غلَّب النَّظمُ الجليل لفظَ الوالدين، وأضافَهُ إلى ضمير الإنسان، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، وذلك باعتبار لفظ الوالدة دون تغليب الأبوَّة، فلم يقل: (بأبويه)؛ والمراد التَّذكير بشأن الولادة؛ تهييجًا للسّامع وحثًّا على الامتثال لهذه الوصيَّة، وتذكيرًا بعلَّة التَّوصية، وهي كونهم سبب وجوده وولادته، فيكون ذلك أدعى للامتثال.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّمييز ﴿حُسْنًا﴾، ولطيفة تنكيره:

الاجتهاد في البرِّ مطلوب حتّى يكون البرُّ هو الإحسان ذاته

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الحُسْن بصيغة اسم المصدر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾؛ للمبالغة في الإحسان

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 142.
(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 139.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الرّي الجامع: 20/ 134.

ووجوبه، أي: إنَّ البرَّ بهما يجب أن يكون هو الحُسن ذاته؛ وذلك لبيان شدَّة حسنه[1]، والتَّنكير في ﴿حُسۡنٗاۖ﴾ يفيد تفخيمَ شأنه وبيان كماله، كما أنَّه يفيد التَّعميمَ والتَّكثير، فيشمل "الإحسان إليهما بكلِّ ما يمكنه من وجوه الإحسان، فيشمل ذلك إعطاء المال والخدمة ولين القول، وعدم المخالفة لهما وغير ذلك"[2].

توجيهُ المُتشابه اللَّفظي:

نفيُ فكرة أنَّ دعوةَ الوالدين بإصرار إلى الشِّرك مسوِّغٌ لإهانتهما

وردتْ كلمة ﴿إِحۡسَٰنٗا﴾ في خمس آيات من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [البقرة: 83]، وفي قوله تعالى: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: 36]، وفي قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ [الأنعام: 151]، وفي قوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: 23]، وفي الأحقاف: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: 15]، ويلاحظ أنَّ الآيات الأربع الأولى وردت في سياق النَّهي عن الإشراك بالله، فاستُعملتْ لفظة (إحسانًا)، أمّا آية العنكبوت؛ فذُكِرت فيها حالةُ شدَّة الحمل والوضع، وفي لقمان ذكرَ شدَّة الحمل ومدَّة الرَّضاعة: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: 14]، ولم يرد فيها لفظتا: الإحسان والحسن.

ولم ترد كلمة: ﴿حُسۡنٗاۖ﴾ إلّا في آية واحدة هنا في العنكبوت؛ وذلك لأنَّ ﴿حُسۡنٗاۖ﴾ آكدُ في الوصف من إحسانًا، فجاءت في هذه الآية: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾؛ لأنَّ هذه الآية تتعرَّض لمسألة صعبة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 31، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 16.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 168.

تمسُّ قمَّة العقيدةِ، التي يطلب الوالدان من الابن أن يشرك باللّه؛ لذلك احتاج الأمر أنْ نوصي الابن بالحُسْنِ في ذاته، وفي أسمى توكيداته، فلم يقل هنا: (إحْسانًا)، إنَّما قال ﴿حُسْنًا﴾؛ حتى لا يظنَّ أنَّ دعوتهما إياه بإصرار إلى الشِّرك مسوِّغٌ لإهانتهما، أو التَّخلي عنهما؛ لذلك يُعلِّمنا ربُّنا: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15][1].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾:

عطف النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، والمعطوف محذوفٌ، وتقديره: (وقلنا له)، فعطف القول على التَّوصية، وذلك لأنَّ التَّوصية تتضمَّن القول[2]، فعطف قولًا على قولٍ، فجمع الأحكام التي أمر اللّه تعالى عباده المؤمنين تجاه الوالدَين المشركَين.

التَّوصيةُ بالوالدين حاصلةٌ حتّى أثناء كونهما دعاةً للشِّرك

لطيفةُ تقييدِ جهادِهم إيّاه بـ (إن) دون (إذا):

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بأداة الشَّرط الدّالَّة على الشَّكِّ والاحتمال (إنْ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، دون (إذا) الدّالَّة على تحقُّق الشَّرط؛ لأنَّ ليس كلُّ والدَين مشركين يقومان بمجاهدة ابنهما لردِّه إلى الشِّرك، فسيق الكلامُ على سبيل الاحتمال والافتراض.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمجاهدة، وصوغها ماضيًا:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ المجاهدة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهما يبذلان جهدهما بإفراط ومبالغة وإلحاح[3]، وصيغة المفاعلة تدلُّ على المشاركة، وقد تدلُّ على وقوع الفعل من طرف واحد على سبيل

إفراطُ الجهد وإفراغ الوسع يقابلُ بالصَّبر مع الإحسان

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 19/ 11640.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 214.

القوَّة والتَّأكيد، فالصّيغة هنا دالَّةٌ على أنَّهما استفرغا الجهد في ذلك[1]، وعبَّر عنها بالفعل الماضي؛ إشارةً إلى أنَّ جواب الشَّرط - وهو عدم طاعتهما - يجب أنْ يكون في حالة تحقُّق المجاهدة، وظهور إصرارهما على حثِّه على الشِّرك.

لطيفةُ إسناد المجاهدةِ إلى ضمير والديه:

قوَّةُ المجاهدةِ ما وقعت بتعاون ومشاركة

أسند النَّظمُ الجليل فعلَ المجاهدة إلى ضمير التَّثنية في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ إشارة إلى أنَّ كلا الوالدين يبذلان الجهد لصرف ابنهما عن الإيمان، وذلك يدلُّ على قوَّة المجاهدة، فهي تقع بالاشتراك من الوالدين، ومع ذلك جاءت الوصيَّة بالثَّبات على البرِّ والإحسان إليهما، فيكون المعنى: على المؤمن التَّمسُّك بدينه، وإن أُصِرَّ عليه أن يترك دينه، وعليه أن يبرَّ والديه، وإن اشتركا على تغيير معتقده.

دلالةُ إيقاع مجاهدتهما جميعًا على ضمير المخاطَب:

تظافرُ جهود الوالدين على ابنهما المقصود ببذل الجهد

عبَّر النَّظمُ الجليل بالضَّمير المخاطَب مفعولًا به لفعل المجاهدة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي﴾؛ وذلك لبيان المقصود بالمجاهدة، وهو الإنسان المخاطَب ببرِّ الوالدين؛ تعبيرًا عن وقوع المجاهدة من الوالدين جميعًا على ابنهما، فجعل مجاهدتهما مخصوصةً به.

معنى (اللام) في ﴿لِتُشۡرِكَ﴾:

علَّةُ المجاهدةِ إيقاع الشِّرك بالمؤمن

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي﴾، وهي هنا دالَّة على التَّعليل، جيء بها لبيان علَّة المجاهدة وغايتها، وهو إرغامُه على الشِّرك، فغاية المجاهدة الدَّعوة إلى الشِّرك.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 395.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإشراك، وصوغه مضارعًا:

العقيدةُ الفاسدة هي الغاية الدّائمة للمشركين

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الشِّرك في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ لدلالته على مشاركةِ العبادةِ بين اثنين فأكثر، والشِّرْكُ العظيم: هو إثبات شريك لله تعالى[1]، فعبَّر بذلك؛ للدَّلالة على إثباتِهم شريكًا لله تعالى في العبادة، وعبَّر عن ذلك بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ المرادَ من سعيهم دوامُ الإشراك وتجدُّده.

توجيهُ المتشابه في قوله: ﴿لِتُشۡرِكَ﴾:

الأمرُ بالإحسان للوالدين في سياق البرِّ أشدُّ منه في سياق الشِّرك والابتلاء

أورد النَّظم الجليل قولَهُ جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ موافقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ [لقمان: 15]، إلّا أنَّه فرَّق بينهما بحرف الجرِّ، فاستعمل في سورة العنكبوت: ﴿لِتُشۡرِكَ﴾، وفي لقمان: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ﴾ [لقمان: 15]، فلِمَ قال هنا: ﴿لِتُشۡرِكَ﴾، وقال هناك: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ﴾ [لقمان: 15]؟ وذلك لأنَّ المجاهدة في سورة لقمان "أشدُّ وأقوى مقارنةً بالمجاهدة في آية العنكبوت، ولذلك جاء بكلمة ﴿عَلَىٰٓ﴾ [لقمان: 15]؛ لتفيد المشقَّة والعلوَّ"[2]، فالسّياقُ في سورة لقمان كلُّهُ كان في توصية الأبناء بالإحسان للوالدين، فقرَّر الإحسان إليهما، حتّى في حالة حملهما الابنَ على الإشراك بما دلَّ عليه حرفُ الاستعلاء؛ فلذا زاد في سورة لقمان مزيدًا من الأوامر تجاه الوالدين: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: 15]، أمّا الإحسان إليهما في سورة العنكبوت على سبيل الاحتراس؛ لأنَّ السّياق في الشِّرك والفتن والابتلاء، وذكر الإحسان إليهما عرضًا، ولتقرير أخلاقِ المؤمن مع أقربائه المشركين، فأصلُ السّياق في الحديث عن الشِّرك والإيمان.

(1) الرّاغب، المفردات: (شرك).

(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الرّي الجامع: 20/ 134.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِي﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وهي هنا دالَّة على الإلصاق، أي: إلصاق الشَّريك باللّه تعالى.

علَّةُ تقييدِ الإشراك بالجار والمجرور ﴿بِي﴾:

الـشِّـركُ إثـمٌ شنيع لتعلُّقِهِ بذات الله تعالى

قيَّد النَّظم الجليل الإشراك بشبه الجملة ﴿بِي﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وذلك لإظهار قباحة الشِّرك وشناعته، فلم يجعله مطلقًا، بل قيَّده بكون الشِّرك واقعًا باللّه تعالى الخالق الحقِّ، فأفاد القيدُ بأنَّه شركٌ باللّه الواحد مستحقِّ العبادة على جهة الإفراد والتَّوحيد.

براعةُ التَّعبيرِ بضمير المفرد في القيد ﴿بِي﴾، دون (بنا):

الإفـرادُ أنسبُ لسياق التَّوحيد والـنَّـهـي عـن الشِّرك

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّمير المفرد في القيد ﴿بِي﴾، دون الجمع في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾، دون أن يقول: (لتشرك بنا)، فترك ضميرَ الجمع الدّالَّ على التَّعظيم، وعبَّر بالمفرد، وذلك للنَّصِّ على المقصود بالشِّرك، وهو اللّه تعالى[1]، فنصَّ بالضَّمير المفرد على أنَّ العبادة واجبةٌ لإله واحد، فلمّا كان السّياق في النَّهي عن الشِّرك؛ كان من البلاغةِ التَّعبيرُ بضمير المفرد المناسب للتَّوحيد، لا بضمير الجمع المناسب لسياق التَّعظيم.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾:

لا تـصـحُّ عـبـادة مجهول الحال، ولا يُشهد لغير الله بالألوهيَّة

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مفعولًا به للشِّرك[2]؛ وذلك لما فيه من الإبهام والعموم، فالإبهام دالٌّ على الجهالة بحال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 395.
(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 140.

هذا الإله، والعموم يدلُّ على أنَّ كلَّ شيء ليس لك به علمٌ، لا يصحُّ اتِّباعه، والمعنى: وإن جاهداك لتشرك بي شيئًا[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَيْسَ﴾:

آثر النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بـ ﴿لَيْسَ﴾؛ لنفي العلم في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ وذلك للدَّلالة على تأكيد انتفاء العلم، فـ (ليس) تدخل على الجملة الاسميَّة التي تدلُّ على تأكيد المعنى وثبوته، فيكون مؤدّى النَّفي بـ(ليس) أنَّ العلمَ منتفٍ على وجه التَّأكيد والثُّبوت، وإنَّما جعل النَّفي مؤكَّدًا؛ لأنَّه لا يوجد إلهٌ دونَ الله تعالى يمكن أن يعلم بشأنه؛ ليكون شريكًا لله تعالى، وفائدة تأكيد النَّفي هنا: أنَّه "إشارةٌ إلى أنَّ نَفْيَ الشِّرك منَ العلمِ الضَّروريِّ، وأنَّ الفِطْرةَ السَّليمةَ مَجْبولةٌ عليه"[2].

انتفاءُ العلمِ المؤكَّد بوجود إلهٍ غير الله يوجب انتفاء الشَّريك عنه

معنى (اللام) في القيد ﴿لَكَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وهو هنا دالٌّ على التَّمليك، فمقصودُ النَّفي أنَّ المخاطَب لا يحوز على علم بإلهٍ يصحُّ أن يكون شريكًا لله تعالى.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِهِۦ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) الدّالِّ على الإلصاق، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وذلك للإشارة إلى أنَّ الإله الحقَّ يُشترط أن يكون العلم به علمًا ظاهرًا صحيحًا مؤكَّدًا، بحيث إنَّه علمٌ متَّصل وملتصق به؛ تعبيرًا عن اشتراط قوَّة العلم بشأن العقائد، فيكون المرادُ انتفاءَ هذا العلم المؤكَّد.

شـرطُ العِلـم بالإله أن يكون متَّصلًا وثيقًا

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 666.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 142.

نكتةُ تقديمِ القيد في الآية:

ينتفي العلمُ بوجود إلهٍ غير الله انتفاء مؤكَّدًا

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبه الجملة من الجارّ والمجرور على المسند إليه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وأصل العبارة: (ليس علمٌ به لك)؛ وعلَّةُ التَّقديم تخصيصُ انتفاء العلم بهذا الإله المجهول عن المخاطَب دون غيره، والمراد تقوية النَّهي، وذلك لأنَّ كلَّ أحدٍ ليس له علم بهذا الإله الذي يجاهد الوالدان؛ ليشركَ ابنهما به، فليس العلمُ المنفيُّ مخصوصًا بالمخاطَب، ولكنَّه جعله مخصوصًا به للمبالغة في انتفائه، والمرادُ من ذلك تقوية النَّهي عن الشِّرك.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ العلم نكرةً:

نفيُ الدَّليل العلمي على وجود إلهٍ غير الله

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ العلم، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، والعلم دالٌّ على إدراك الشَّيء بحقيقته[1]، فالمراد العلمُ الحقُّ الذي يستند على الدَّليل العقليِّ أو الشَّرعي، فلا يوجد دليلٌ تدرك به استحقاق تلك الأشياء العبادةَ[2]، وجيء به نكرةً؛ للدَّلالة على انتفاء أيِّ شيءٍ ممّا يمكن أنْ يُقال: له علم، أي: ليس لك أيُّ علم، وإنْ كان ضئيلًا.

نكتةُ تعليقِ النَّهي عن الإشراك على انتفاء العلم:

الواقعُ المحتوم انتفاء الدَّليل عن كلِّ إلهٍ مزعوم

مع أنَّ الإشراك مُحرَّمٌ كلُّه، فإنَّ النَّظم الجليل علَّق النَّهي عن الشِّرك بعدم وجود العلم، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، فهل إذا وُجد العلم بالإله؛ جاز الشِّرك؟ مع أنَّ ظاهر النَّصِّ يدلُّ على جواز الشِّرك في حالة وجودِ العلم بالإله، إلّا أنَّ هذه العبارة ليست تقييدًا، بل هي بيانٌ للواقع، والواقعُ أنَّه ليس هناك إلهٌ سوى الله ﷻ[3]، أي: إنَّك في كلِّ الأحوال لا يمكن

(1) الرّاغب، المفردات: (علم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 214.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 16.

أن تملك علمًا بصحَّة إلهٍ ما، هذا هو الواقع، فلا يدلُّ على أنَّه يجوز الإشراكُ في حالة تحقُّق العلم.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآ﴾:

أدخلَ النَّظمُ الجليل الفاء على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآ﴾؛ لتربطَ بين الشَّرط والجواب، فهي واقعة في جواب الشَّرط[1]، وجيء بها لأنَّ الجملة في الجواب جملة طلبيَّة إنشائيَّة يجب إلحاق الفاء بها؛ لتكون مرتبطةً بالشَّرط، فإنَّ النَّهي عن الطّاعة متعلِّق بوقوع المجاهدة على الشِّرك.

معصيةُ الوالدين وانتفاء طاعتهما متعلِّقة بدعوتهما للشِّرك

وجهُ التَّعبير بـ (لا) في قوله: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالجملة الإنشائيَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآ﴾، فهي جملة طلبيَّة أُنشئت للنَّهي بـ (لا) النّاهية الدّاخلة على الفعل المضارع، والمراد طلب الكفِّ عن طاعة الوالدين في حال تحقُّق الشَّرط، وهو الحمل والدَّعوة إلى الشِّرك، والنَّهي دالٌّ على وجوب الكفِّ، فالطّاعة محرَّمة في تلك الحال.

الكفُّ عن طاعة الوالدين واجبٌ في حالة دعوتهما للشِّرك

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿تُطِعۡهُمَآ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالفعل المضارع عن الطّاعة المنهيِّ عنها في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الكفَّ عن الفعل مطلوبٌ على وجه الدَّوام والاستمرار، فعدمُ طاعة الوالدين في دعوتها للشِّرك يجب إيقاعها على وجه الإصرار والدَّوام.

على المؤمن عدمُ تلبيةِ دعوة الشِّرك بإصرارٍ واستمرارٍ

توجيهُ الجمع بين الإحسان وعدم الطاعة للوالدين:

جمعَ النَّظمُ الحكيم بين الأمر بالإحسان للوالدين والتَّوصية به مع النَّهي عن طاعتهما، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾، ففي صدر الآية بدأ بالوصيَّة بهما، وفي أثنائها نهى عن طاعتهما،

لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 140.

وتوجيه ذلك أنَّ الجمع بينهما للتَّنويه بأنَّ الوصيَّة بالإحسان إليهما، لا تقتضي طاعتهما في السّوء ونحوه، وأنَّ المقصودَ تأكيدُ الإحسان إليهما في سائر الأحوال إلّا حال الأمر بالشِّرك، فالقصد من الجمع ألّا يقعَ المسلمون في التباس بين الأمر بالإحسان، والأمر بالعصيان في شأن الوالدين، فظهر أنَّه لا تعارض بينهما؛ لأنَّ أمرهما ابنهما بالشِّرك وعصيانه لا يعدُّ عصيانًا بشيء يخصُّهما[1].

معنى (إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ﴾:

نهايةُ أمرِ النّاس ومرجعُهم لله تعالى دون سواه

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ (إلى) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على انتهاء الغاية، أي: إنَّ نهاية الرُّجوع كائنةٌ إلى الله تعالى، فمنتهى كلِّ شيء إلى الله تعالى؛ إشارة إلى أنَّ الحكم بينهم في شأن الاعتقاد ستظهر حقيقته يوم الحساب.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّمير مفردًا في ﴿إِلَيَّ﴾ دون (إلينا):

الضَّميرُ المفرد أبلغُ في بيان التَّوحيد

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّمير المفرد دون الجمع، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، دون أن يقول: (إلينا مرجعكم)، فلم يعبِّر بضمير الجمع الدّالِّ على التَّعظيم، بل عبَّر بالضَّمير المفرد، وذلك للنَّصِّ على أنَّ الرَّجوعَ كائنٌ إلى الله تعالى وحده، فلمّا كان سياق الآية في التَّوحيد، والنَّهي عن الشِّرك، أورد النَّصُّ الضَّمائرَ بصيغة الإفراد؛ تعزيزًا لأمر التَّوحيد، ولم يسلك السّياق طريقَ التَّعظيم، فلم يأتِ بالضَّمائر بصيغة الجمع، وهذا من لطائفِ البلاغة القرآنيَّةِ، فنصَّ بالضَّمير المفرد على أنَّ المرجعَ يوم القيامة كائنٌ لإلهٍ واحد ﷻ.

نكتةُ تقديم الجار والمجرور ﴿إِلَيَّ﴾:

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على المسند

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 213 - 214.

إليه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، فلم يقل على الأصل: (مرجعكم إليَّ)، وذلك لإرادة الحصر والتَّخصيص، فالرُّجوع مختصٌّ محصور بأنَّه إلى الله تعالى لا إلى أحدٍ سواه[1]، والإخبار بذلك حثٌّ للمؤمنين على التَّمسُّك بالتَّوحيد إزاءَ مجاهدة الوالدين له، وترهيبٌ للمشركين الذين يدعون النّاس إلى ترك التَّوحيد واتِّباع سُبُلِ المشركين.

تثبيتُ المؤمنين ببيان اختصاص الـرُّجـوع بالله تعالى

دلالةُ التَّعبيرِ بالمرجع دون الرجوع:

"المصدر الميمي يصوِّرُ المعنى المصدري واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجود، أمّا المصدرُ غير الميمي؛ فيصوِّر المعنى مجرَّدًا، فإذا كانت كلمة مقال بمعنى القول؛ فإنَّ التَّعبير بالقول يصوِّر معنًى مجرَّدًا من غير نظر إلى كونه تحقَّق وجوده أم لا، أمّا كلمةُ مقال؛ فتصوِّر معنى وجد، وتحقَّق، أو في صورة الوجود المتحقَّق"[2]، وعلى هذا يكون معنى ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: أنَّ المرجع إلى الله تعالى حقيقةٌ واقعة مؤكَّدة، لا مراء فيها، ولا شكَّ، وهو معنًى لا يؤدّيه المصدر المجرَّد (الرجوع)؛ لأنَّ السّياق في المجادلة في الشِّرك والمجاهدة في الدَّعوة إليه وفي تثبيت المؤمنين، فعبَّر بأنَّ الرُّجوع مؤكَّدُ الوقوع، مع قوَّة الرُّجوع بحيث إنَّه رجوعٌ للحساب مع حضور الأعمال لا مطلق الرُّجوع.

الرُّجوعُ إلى الله تـعـالى مـؤكَّـدُ الوقوع

دلالةُ الإضافةِ في ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾:

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ المرجع إلى ضمير المخاطَبين في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ للدَّلالة على أنَّ الجميع عائدون إلى الله تعالى مَن آمَنَ ومَن أشركَ، ومَن برَّ بوالديه ومَن عقَّهما[3]، كما أنَّه يشير إلى أنَّكم - أيُّها المخاطَبون - ميّتون، ثمَّ بعد ذلك

المختلفون في شأن الاعتقادِ كلُّهم راجعون إلى الله تعالى للحساب

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 347.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/ 647.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 31.

سوف ترجعون إلى الله تعالى وحده، وأنَّه سيُحاسبكم على معتقدكم جميعًا، فهو دعوة للتَّحرّي واتِّباعٌ عن عِلْمٍ ودراية لا عن جَهْلٍ.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾:

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله عزَّ اسمُه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ بالفاء العاطفة[1]؛ وذلك للدَّلالة على التَّعقيب والتَّرتيب، فالإنباء مترتِّبٌ على الرُّجوع، ويقع إثرَهُ، ومشعرة بالسَّببيَّة[2]، أي: إنَّ سبب الرُّجوع كائنٌ للإنباء بما عملوا، أي: إنَّ سببَ البعث إقامةُ العدل وإظهار الحق، وإنصاف أهل الحقِّ.

عـلَّـةُ الـرُّجـوع الإخـبـارُ بالحقِّ وإنصاف أهله

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّنبئة دون الإنباء، وصوغها مضارِعةً:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الإنباء بصيغة التَّفعيل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنَّ الإنباء دالٌّ على الإخبار العظيم، أي: أخبركم إخبارًا عظيمًا[3]، وجاء بصيغة التَّفعيل للدَّلالة على قوَّة الإنباء وتأكيده، والمعنى: فأخبركم إخبارًا ينتفي به الشَّك عن الجزاء الفاصل بين المحقِّ والمبطل منكم[4]، وجيءَ بهِ بصيغة المضارع للدَّلالة على دوام ذلك الإنباء وتصويره وجعله متخيَّلًا لهم.

الإخـبـارُ عـن حـوادث الدُّنيا ومـعـتـقـدات أهـلـهـا حـدثٌ عـظـيـمٌ ونـبـأٌ خطيرٌ

بلاغةُ الكناية في الفعل: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾:

كنّى النَّظمُ البليغ بالإنباء في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عن المجازاة، فهو تحذيرٌ من الجزاء يوم القيامة، ودعوةٌ للإيمان والتَّوحيد؛ لأنَّ الإنباء سببٌ لطروق الجزاء إليهم، وفيه إشارةٌ إلى تهديدهم بالافتضاح على رؤوس الأشهاد[5].

الإنباءُ بالأعمال سببٌ لتحقيق الجزاء، وتهديدٌ بالافتضاح

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 313.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 396.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 396.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/ 452.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 396، وينظر: إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 449.

دلالةُ إفرادِ ضمير الفاعل في ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾:

المنبئُ عن أعمال العباد يوم الحساب واحد

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة الإفرادِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، دون الجمع، فلم يقل: (فننبِّئكم)، فترك التَّعبيرَ بصيغة التَّعظيم، وعبَّر بصيغة المفرد، وذلك للنَّصِّ على أنَّ المحاسبَ والمُنبئ واحد، وهذا أنسبُ لمقام التَّوحيد والدَّعوة إلى الثَّبات عليه، فالسّياق في النَّهي عن الشِّرك والثَّبات على التَّوحيد، فأمر بترك طاعة الوالدين حال أمرهما بالشِّرك، فكان من تمام البلاغة بيانُ أنَّ الإلهَ الحقَّ الذي سترجعون إليه، وينبِّئكم بما تفعلون هو واحدٌ في الإنباء والمرجع.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِمَا﴾:

علمُ الله تعالى متَّصلٌ بكلِّ فعل من أفعال عباده

عبَّر النَّظم الجليلُ بحرف الجرِّ (الباء)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهي هنا دالَّةٌ على الإلصاق[1]، وذلك للدَّلالة على قوَّة الإنباء، فكأنَّ الإنباء لقوَّة وصفه وإظهاره الأعمال يقع فيها، ويلتصق بها.

علَّةُ التَّعبير بالموصول (ما):

وكلُّ شيءٍ أحصاه عددًا

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول (ما) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على الإنباء يشمل كلَّ الأعمال صغيرها وكبيرها، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 47]، وذلك لما فيه من دلالة على العموم والإبهام.

براعةُ المقابلة بين: ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

الإنباءُ عامٌّ بكلِّ فعل، وجزاء المؤمنين بأفضل عمل من أعمالهم

عبَّر النَّظمُ الجليل عن وصيَّة الله تعالى لعباده المؤمنين بالإحسان إلى الوالدين المشركين، فأخبر بقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أمّا في الإخبار عن جزاء المؤمنين يوم القيامة؛

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الرّي الجامع: 20/ 134.

فأخبرَ بقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، فاستعمل ﴿ٱلَّذِى﴾ في جزاء المؤمنين؛ لأنَّه جعل جزاءهم تبعًا لأفضل عمل جاؤوا به، أمّا الإنباء؛ فيقع على عموم الأعمال، فقال: (ما).

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الكون ﴿كُنتُمْ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الكون، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، دون أن يقول: (فأنبِّئكم بما عملتم)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم كانوا يأتون تلك الأعمال برغبة[1]، ويداومون عليها بإصرار، حتّى صارت لهم طبعًا راسخًا بهم.

من دأبَ على عملٍ صار راسخًا فيه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ العمل دون الفعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ العمل ما كان مقصودًا مرادًا، أمّا الفعلُ؛ فهو مطلقٌ في كلِّ الأفعال، فدلَّ ذلك على أنَّ الحساب والإنباء يشمل ما فُعِلَ بقصدٍ وإرادة له، وجي به بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ عملهم الذي سيخبرون به هو من الأعمال التي كانوا دائبين عليها، يفعلونها باستمرار وإصرار، فأكَّد معنى التَّجدُّد في المضارع إصرارهم على الفعل المعبَّر عنه بفعل الكون.

العملُ المقصودُ هو مناط الحساب والتَّكريم

دلالةُ حذف متعلَّق ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

أطلقَ النَّظمُ الجليل الفعلَ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ عن المتعلَّق، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الإنباءَ يشمل المؤمنين والمشركين، فكان الإطلاق أنسبَ؛ للدِّلالة على عموم الأعمال: السَّيِّئ منها والصّالح، وأعمال التَّوحيد والإشراك.

أعمالُ الخيرِ وأعمال الباطل كلُّها ستعرض يوم القيامة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 396.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّوصية والأمر:

الأمْرُ ضِدُّ النَّهْيِ[1]، وهو التكليفُ بفعل شيء[2]، أمّا الوصيَّة؛ فهي التَّقدُّمُ إلى الآخر بما يعمل به مقترنًا بوعظ[3]، فالأمرُ تكليفٌ وإلزام، والتَّوصية إرشادٌ ودلالة إلى الخير وما فيه النَّفع، بطريقة الوعظ والتَّعليم، وقد آثرَ في الآية لفظَ الوصيَّة لما في الأمر بطاعة الوالدين والإحسان إليهما من منافعَ وخير وبركة للنّاس جميعًا، فكلُّ النّاس يمرّون بمرحلة الأبوَّة والبنوَّة، فالنَّفع عامٌّ للجميع بهذه الوصيَّة.

الأمـرُ تكليفٌ ملزم، والوصيَّة إرشادٌ إلى نفع

الطاعة والامتثال:

تدلُّ الطّاعة عَلَى الإصْحابِ والانْقيادِ، والموافقة للآخر، أمّا الامتثالُ؛ فهو من المماثلة، وهو أصلٌ يَدُلُّ عَلَى مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ[4] واحتذائه[5] وسلوك طريقته واتِّباعها من غير أن يعدوَها[6]، فالامتثال يدلُّ على أنَّ الشَّخص يفعل مثل ما يُؤمَرُ به، ولا يُشترط فيه الرِّضا، أمّا الطّاعة؛ ففيها قَبولٌ ورضا عمّا يُطاع، وفي الآية جاء النَّهي عن الطّاعة لا عن الامتثال؛ لأنَّ المطلوبَ مِنَ المؤمن تَرْكُ الشِّرك؛ لأنَّه لا يرضاه.

الطّاعة فعلُ المأمور برضا وقبول، والامتثال فعلُهُ بلا شرط الرِّضا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(2) الرّاغب، المفردات: (أمر).
(3) الرّاغب، المفردات: (وصى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(5) الجوهريّ، الصحاح: (مثل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (مثل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»